

المناجاة الروحية بين عالم الشهود وعالم الخلود

قراءة في نص ولغة "النوارس تسكن المقابر"

عبد السلام صحراوي

جامعة منتوري * قسنطينة * الجزائر

Résumé

Cette contribution est à la fois une interprétation, une analyse, une approche et une reformulation d'un texte poétique. Elle est aussi une réécriture en prose d'un poème contemporain qui reflète et dégage un questionnement de l'âme et de l'éternité, et qui essaye de s'attacher aux sphères du monde éternel et spirituel hors du commun, où vivent les êtres les plus nobles qu'on a aimé et qu'on a chéri. Mais heureusement ou malheureusement ! Ils ne sont plus de ce monde...Ils sont au-delà du monde réel. Mais ils sont notre liaison et notre voie de communication avec le monde de l'éternité, à travers des conversations intimes, pleines d'amour, de tristesse et de chagrins, d'un vocabulaire spécifique et exceptionnel. Tel est le poème - sujet de de cette lecture poétique et esthétique du poète Abdallah Hammadi.- intitulé :«Les Goélands habitent les cimetières».

ملخص

تقوم هذه الدراسة على قراءة متأنية وكاشفة لأجواء عوالم الروح في مناجاة الأحبة ممن رحلوا فجأة، فكانت الفاجعة الأليمة والحزن على الحبيب الذي ما عاد من هذا العالم. إنها استنطاق لنص متميز بفرادته اللغوية وخطابه الذي يركز على السؤال والمسألة للموت والحب والأبدية، وهو في الوقت نفسه تعبير عن حالات الشوق والحزن والحب والفراق بمفردات هي أقرب إلى الأئين والحنين والدهشة والوجد والخوف واللوعة والانخطاف والذكرى، وهي كذلك الأقرب إلى المناجاة الروحية بين عالم الشهود وعالم الخلود من غيرها من أنواع الخطاب وأساليبه. وهو ما يعكسه السجل اللغوي في قصيدة "النوارس تسكن المقابر".

قصيدة "النوارس تسكن المقابر" في ديوان "أنطق عن الهوى" ⁽¹⁾ للشاعر عبد الله حمّادي، هي قصيدة متفردة ومتميّزة في موضوعها بين قصائد الديوان؛ إنها مرثية وقصيدة تأبينية، وهي إلى ذلك مناجاة لروح امرأة عزيزة وقريبة من القلب والوجدان، وافتها المنية فجأة فتركت لوعة وحسرة وحزنا لدى الشاعر. هذه المرأة - ولا شك - كانت ولا تزال تشغل مكانة عزيزة في قلب الشاعر، وهي ولا شك كانت ولا تزال قريبة من الشاعر ولها مودة خاصة جعلته يتألم لفقدانها لما خلّفته من لوعة وحزن وحسرة الفراق.

إنّها "سلاف" كما يناديها ويناجيها الشاعر "يا سلافتي"، إنّها "بزة" كما درج العامة والخاصة على مناداتها.. هذه المرأة العزيزة، وهذه المرأة الحبيبة كما يناديها الشاعر ويخاطبها "أيتها الحبيبة" بصدق ومودة حارة، رحلت عن الدنيا وسكنت اللحد والمقابر بعد أن كانت وردة باسمه وبجميلة تشيع المحبة والبسمة والفرح، فتزيدها الحياة جمالا وفرحا وجورا.

إنّها "سلاف" الشبيهة بطائر النورس، طاهرة الروح والجسد، شفافة القلب والروح، تزهو كما الحدائق العابقة بأريج الورد والياسمين حبًا وعطفا وطيبة في الروح ومودة في القلب. إنّها سلاف، إنّها بزة، إنّها النورس الجميلة، ترحل فجأة مخلقة فراغا رهيبا وهائلا ولوعة واشتياقًا.. هذا الغياب المحزن والرهيب وهذا الشوق المبرح يدفعان الشاعر عبد الله حمّادي إلى مناجاتها في نص فريد بين نصوص ديوانه "أنطق عن الهوى". هذا النص الشعري الذي يقوم أساسا على المناجاة الروحية بين عالم الشهود وعالم الخلود.

وتحتاج منّا قصيدة "النوارس تسكن المقابر" - قبل النظر في مضمونها ولغتها- إلى وقفة عند بعض المفردات الواردة في عنوان هذه الدراسة؛ وهي مفردات تحتاج إلى بعض الشرح والإيضاح لارتباطها الشديد بالنص موضوع الدراسة. ومن هذه المفردات:

المناجاة: وهي عادة ما يختلط معناها بالدعاء، ولا بد من القول بأنّ الدعاء هو طلب الداني من العالي (أنا داني والمولى عزّ وجلّ عالي)... أتدللّ الله، أخضع، أعبد، سبّحانه بالدعاء. وقد يصدر منّي الدعاء لحاجة دنيوية.

وأما المناجاة، فهي ليست طلبا من الداني للعالي... وإنما هي حديث المحبّ إلى محبوبه (حب

الله)

وفيها راحة للنفس. وهي إلى ذلك حديث المحبّ عندما يُقدم على البوح بحبّه واشتياقه ولوعته. وهي أيضا مناجاة الله سبحانه وتعالى. فحديث المناجاة إذن، يختلف عن الدعاء، لأنّ المناجاة في الغالب حديث محبّ مشتاق، وهي تعبّر عن الألم الروحي واللوعة والشوق، وهي حديث يريح النفس، ويشعرها بنوع من الطمأنينة والسعادة والسكينة، كما هو الحال عند الصوفية في بعض مقاماتهم وأحوالهم والمتعبّدين عامة، وكما هو الحال في قصيدة "النوارس تسكن المقابر" لعبد الله حمادي إلى تقوم على المناجاة الروحية.

ومن مفردات هذه القراءة لفظ "الشهود" ولفظ "الخلود".

وعالم الشهادة أو الشهود هو ما يقابل عالم الغيب، وهو عالم الشهود وما نشاهده وما نسمعه وما نشمه وما نحس به، أو نراه، أو نتذوقه، وكلّ ما يأتينا من معلومات عن طريق الحواس الخمس. وهو الوعي الحسي بالعالم المحسوس. فالمدرجات الحسية تمثّل عالم الشهود.

أما لفظ الخلود: فإنّه يقابل في الفرنسية Immortalité، والأبدية L'éternité ومنها الحياة الأبدية La vie éternelle. وهو مصطلح يدلّ على الحياة في الشكل الروحاني أو الفيزيائي لمدة غير محددة. أي شكل من أشكال الحياة لمدة غير محددة سواء أكانت هذه الحياة فيزيائية بشرية أو غير بشرية أو روحانية. وهناك بعض الفلسفات والمدارس الفلسفية تدعى الخلودية، يؤمن أصحابها بالقدرة على الوصول إلى الخلود، أي خلود الإنسان. في حين ترفض معظم الأديان هذه الفكرة (فكرة الخلود في الدنيا) وتعتبر الله أو الكون هو الخالد الوحيد. والاعتقاد السائد هو خلود الروح، بينما الجسد يفنى ويزول. وتلك هي المقابلة بين عالم الشهود وعالم الخلود.

والمناجاة في هذه القصيدة موضوع الدراسة هي وسيلة المعراج من عالم الشهادة إلى عالم الخلود، أي من عالم الشهود إلى عالم الخلود. كما تتضمّن المناجاة معاني لمفردات عديدة منها الشوق واللوعة والألم والبوح والحبّ والبين / البعد والهجر والفراق والموت الذي لا مرد له وفيه يقول عز وجلّ:

وقد قيل:

ليس الميت من مات فاستراح
إنما الميت ميت الأحياء
وقال ليبد بن ربيعة أيضا:

وما المال والأهلون إلا ودائع
ولا بد أن نردّ الودائع
وقال كعب بن زهير:

كلّ ابن أنثى وإن طالت سلامته
يومًا على آلة حديد محمول

وقال رسول الله (ﷺ): "اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك".

وقد ورد في كتاب ابن حزم الأندلسي "طوق الحمامة في الإلفة والألف" في باب البيّن قوله: "وقد علمنا أنّه لا بد لكلّ مجتمع من افتراق، ولكلّ داني من تناء، وتلك عادة الله في العباد والبلاد، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين" (7)، ثمّ يقول عن الفراق والموت: "وما شيء من دواهي الدنيا يعدل الافتراق، ولو سالت الأرواح به فضلا عن الدموع كان قليلا. وسمع بعض الحكماء قائلا يقول: الفراق أخو الموت، فقال: بل الموت أخو الفراق" (8).

وقد أفاض ابن حزم بعد ذلك في الحديث عن أقسام "البيّن" كما هي طريقته ومنهجه في أبواب كتاب طوق الحمامة الأخرى؛ فتحدّث في باب البين عن الفراق وعن منع اللقاء وعن الرحيل، وعن الوداع، وعن الهجر أو الهجران وعن بين الموت، وغيرها من حالت الفراق والرحيل عن المحبوب أو رحيل المحبوب.. وعن فراق الموت يورد ابن حزم في كتابه المذكور شرحا لما يخلفه الموت قائلا:

"ثمّ يبيّن الموت وهو الفوت، وهو الذي لا يرجى له إياب، وهو المصيبة الحالة، وهو قاصمة الظهر، وداهية الدهر، وهو الويل، وهو المغطّي على ظلمة الليل، وهو قاطع كلّ رجاء، وماحي كلّ طمع، والمؤيس من اللقاء. وهنا حارت الألسن، وانجذم العلاج. فلا حيلة إلا الصبر طوعًا أو كرهاً، وهو أجل ما يبتلى به المحبون، فما لمن ذهبي به إلا النوح والبكاء، إلى أن يتلف أو يملّ، فهي القرحة التي لا تنكي، والوجع الذي لا يفنى" (9).

وفي هذا الصدد يورد ابن حزم قصته مع جارية أحبها حباً كبيراً ملاً عليه دنياه، ثم رحلت عنه إلى دار البقاء، وغيّبها الموت عنه، فتركته في لوعة وحزن وحسرة. يقول ابن حزم الفقيه الأندلسي:

"وعنيّ أخبرك أنّي أحدٌ من دُهيّ بهذه الفادحة، وتعلّجت له هذه المصيبة. وذلك أنّي كنتُ أشدّ الناس كلفاً، وأعظمهم حبّاً بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها "نعم"، وكانت أُمّية الممتنيّ، وغاية الحُسن خُلُقاً وخُلُقاً... وكنا قد تكافأنا المودة. ففجعتني بها الأقدار... وصارت ثالثة التراب والأحجار. وسنيّ حين وفاتها دون العشرين سنة. وكانت هي دوني في السن. فلقد أقمْتُ بعدها سبعة أشهرٍ لا أتجرّد من ثيابي، ولا تفتُر لي دُمعةً على جمود عيني... وعلى ذلك فوالله ما سلوتُ حتى الآن... وما طاب لي عيشٌ بعدها، ولا نسيْتُ ذكرها، ولا أنستُ بسواها...".⁽¹⁰⁾

ولقد أكثر الشعراء والكتاب الحديث عن الموت والقبور ومناجاة الأحبة ومخاطبتهم وهم الذين رحلوا وغيّبهم الموت، حتى أنّنا نجد كتباً في الموت والقبور، شعراً ونثراً⁽¹¹⁾ بلغة فصيحة وبلغة دارجة شعبية. كما كتب الكتاب قصصاً وروايات وملاحم مخلّدة للأحبة. وفي هذا الصدد نشير إلى الكوميديا الإلهية التي تذكر بعض المراجع أنّ دانتى كتبها تخليداً لحبيبته "بياتريس" التي غيّبها الموت في عزّ شبابها.. كما نذكر قصة "حيزية" – الأميرة الهلالية الجزائرية مع ابن عمّها سعيّد. حيزية التي رحلت مخلّفة لوعة وحرقة في قلب ابن عمّها الذي أحبّها في صمتٍ، فما كان منه إلا أن يطلب من الشاعر رابح بن قيطون أن يخلّد قصة حبه لحيزية التي رحلت عنه إلى الأبد، فكانت تلك القصيدة والقصة الشعبية الرائعة التي ترددها الأجيال والتي مطلعها:

عزوني يا املاخ في رايس لبنات سكنت تحت اللحوذ ناري مقديه
ياخي أنا ضيرُ بيا ما بيا قلبي سافر مع الضامر حيزيه

دون أن ننسى قصة البوغي القسنطينية التي أصبحت إحدى جواهر المألوف القسنطيني والتي ظلت لزمن طويل مغيبة لأسباب عديدة.⁽¹²⁾

في "النوارس تسكن المقابر" علامات استفهام كثيرة وصوت واحد هو صوت الشاعر الذي يعنون النص بعلامة التعجب والاستفهام عن الجسد المفدى الذي يسكن التراب والمقابر. ويصدّر النص بعبارة هي عبارة عن شطر بيت من الشعر: (ولسوف يولع بالبكا من يفجع)⁽¹³⁾. وهو في الأصل من بيت لأبي ذؤيب الهذلي: يقول فيه:

ولقد أرى أن البكاء سفاهةً ولسوف يُولعُ بالبكا مَنْ يُفجعُ

والبيت من قصيدة طويلة لأبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه مطلعها:

أَمِنَ الْمُنُونِ وَرِييَهَا تَتَوَجَّعُ وَالْدَهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِحَسَمِكَ شَاخِبًا مِنْذُ ابْتَدَلْتُ وَمِثْلُ مَالِكٍ يَنْفَعُ

ومن أجمل أبيات القصيدة. والقصيدة كلها جميلة - قوله:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

ثمّ يعقب هذا التصدير في قصيدة "النوارس تسكن المقابر" إهداء خاص إلى هذه العزيزة على قلب الشاعر، إلى "سلاف" المدعوة "بزة" التي وافتها المنيّة في 11 أوت 2011م .. إذن هو الموت والغياب والبعد والفراق، ورحيل بلا رجعة يضع الشاعر أمام تجربة قاسية وأليمة تجعله يكاد لا يصدق ما جرى ويجري، كيف للنوارس أن تسكن المقابر؟؟ إنها الحياة والموت، وسنة الله في خلقه..، إنها الفجيعة التي ليس كمثليها فجيعة؛ فجيعة الموت - موت الأحبة، وموت الأعزاء الذين لهم في قلوبنا المودة والتقدير والاحترام والحبور.

بَزَّةُ أو سُلَاف، تلك الكريمة، تلك الوديدة، تلك الحبيبة، تلك الغالية، وتلك العجيبة في خلقها وأخلاقها، كيف لها أن تسكن المقابر؟ ترحل عن الدنيا فجأةً وتسكن اللحد.. يناجيها الشاعر عبد الله حمّادي معتمدا أسلوب الاستفهام في مقاطع كثيرة من نص القصيدة قائلاً:

أَيُّهَا الْحَبِيبَةُ

أَيُّهَا الْعَجِيبَةُ

كيف للنوارس أن تسكن المقابر؟⁽¹⁴⁾

كلّ مقطع من المقاطع الأولى للقصيدة هو علامة استفهام، وهو سؤال ومناجاة لهذه الروح الطيبة التي سكنت الجسد ثمّ رحلت إلى عالمها السماوي، وبقيَ الجسد حبيس اللحد والتراب والحجارة. روح بَزَّة وروح سلاف الحبيبة والعجيبة في طبيعتها وأخلاقها وخلقها، يناجيها الشاعر متوجّها إليها بالسؤال والنجوى، معبراً عن حزنه، وعن هذا الغياب والرحيل بل الموت الذي كان قاسياً عليه حتى أنّه لم يترك له أملاً في اللقاء:

"النور يا سلافتي،

يحجبه المغيب عن أساور

يديك

فلا ابتسامة تلوح من شعرك

الظليل؟⁽¹⁵⁾

أين هي تلك الابتسامة الجميلة على ثغرك الجميل؟ وأين حضورك السعيد الذي كان يجلب
المسرة والفرح؟ وأين شعرك الظليل..؟ أين جمالك الروحي وحضورك الذي اعتدنا عليه؟؟ أين كل
ذلك أيتها الحبيبة والجميلة والعزيزة..؟؟ أين رحلت فجأة، وأين ذهبت عنا؟ كيف لقدك النحيل
الشفاف جمالا وروعة.. أن ينام في التراب ويبيت الليل في ظلمة اللحد، يضمه التراب في قبر بارد؟

كيف يا حبيبة يبيت

في التراب

قدك النحيل

تطاله معزوفة من تربة وطين...؟

أيتها الحبيبة

لم جنحت صوب مدائن الصفيح

والخواء؟⁽¹⁶⁾

إنه الموت الذي يتنقل فيه الإنسان من عالم الشهود إلى عالم الخلود، فلا يجد الشاعر طريقا
ولا وسيلة سوى مناجاة الحبيبة "بزة" والعزيزة "سلاف" بالاستفهام حيناً وبالسؤال عن الغيب
وحياة الخلد مستعملا علامات الاستفهام ومركزا على استكشاف عالم الغيب البعيد، مبرزاً
المفارقة العجيبة بين الجسد والروح، وبين الشهود والخلود، مرددا اسم حبيبته ومخاطبا إياها بأحلى
الألفاظ ومناديا عليها في كل مرة وفي كل مقطع تقريبا:

أيتها الحبيبة

أيتها العجيبة..

يا حبيبة، ثمّ أيتها الحبيبة

ثمّ قوله : الموت يا حبيبة

وقوله: حبيبتى الصغيرة... إلخ

إنّها المودة الخالصة والتقدير الكبير لهذه المرأة التي استحققت كلّ احترام الشاعر وتقديره
فراح يناديها ويناجيها بهذه الألفاظ القريبة من القلب والقريبة من الروح.. إلى أن يقول:

الموت يا حبيبة، قرصان

هذا العصر،

وعرشه المنسدل من رحمة

السماء

يقطّع الأواصر...

يسلبنا الغناء

...حبيبتى الصغيرة

موعدنا انتهى. (17)

إنّه الموت، الموت الذي لا مردّ له، وأيّ طريق يوصلنا إلى الحبيب، إنها طريق المناجاة / مناجاة
الحبيبة، وهي المعراج إلى عالم الروح وعالم الخلود؛ حيث الاتصال بمن نهوى ونحب، فنبوح لهم بما
كنّا لا نستطيع البوح به في الحياة الدنيا. هنالك تخاطب الأرواحُ الأرواحَ وتبوح بكل الحب وكلّ
الألم وكلّ اللوعة والحسرة والمودة - هنالك تتعانق الأرواح في غيمة من نور ويموت الموتُ
وتتقارب المسافات والأبعاد، ويلتقي الحبيب بالحبيب في عالم الخلود والبقاء وعرشه المعمور...

وتتوالى مناجاة الحبيبة مع الاعتراف والبوح حتى أصبح الشاعر يحبّ المقابر والأموات لأنّ
المقابر تضمّ أيضاً حبيبته الغالية وتعيد إليه خيالها السعيد:

حبيبتى، الجرح من فراقك

يطول... ويزيد

وقلبي المضّرج من وجهك

البعيد

فكيف أتناسى خيالك

السعيد؟

أحببتُ من هجرانك مقابر

الأموات

أحببتُ كلَّ لحدٍ يطوّقُ

الأجساد

وينشرُ أريجَه المحنّضِ

المريب... (18)

ويكاد هذا النص الشعري كلّهُ، يقوم على المناجاة الروحية والمناداة على الحبيبة البعيدة والقريبة ومن خلال ترديد الشاعر لعبارات غلبت على مفردات النص فكانت قاموساً للحب والألم والمناجاة والشوق والسؤال والمساءلة للموت والجوى والأبدية، وهي في الوقت نفسه، جاءت لتعبّر عن حالات الشوق والحزن والحب والفراق بمفردات هي أقرب إلى الأنيب والحنين والدهشة والوجد والخوف واللوعة والانخطاف والذكرى. ومن ذلك قوله في مقاطع مختلفة غطت جسد القصيدة بأكملها، حيث وردت هذه العبارات الشعرية:

أيتها الحبيبة - أيتها العجيبة - فكيف يا حبيبة يبت في التراب قدك النحيل - أيتها الحبيبة لم جنحت صوب مدائن الصفيح والخواء - الموت يا حبيبة قرصان هذا العصر - حبيبتني الصغيرة موعدنا انتهى - ثمّ قوله: حبيبتني الجرح من فراقك يطول... ويزيد... وأخيرا قوله:

فقبرك حبيبتني رياضه

الهجير

ولحظة من ألق تُفجّر

الأثير. (19)

وأخيراً وفي جوٍّ من الخشوع والقبول والرضا على طريقة الصوفية، وفي جو المناجاة الروحية الذي يطغى على القصيدة كلّها - من بدايتها إلى نهايتها - يطمئنُّ الشاعر ويشعر بنوع من الألفة الروحية والسعادة والراحة، فيخاطب حبيبته الغالية معبراً عن إيمانه ورضاه بما كتبه الله في سفر الحياة والموت وسفر الخلود، وعن شعوره بالارتقاء والسمو إلى ملكوت السماء، قائلاً:

فقبرُكُ المعفّر
بنكهة السماء
يحفّني بشاطئ
مساره الضياء،
ويصطلي أكتّتي
بوحدّة الضرير
القابع ببابه
يسأله التكفير.⁽²⁰⁾

ويتتهي الشاعر إلى الرضا بالقضاء والقدر، ويطلب المغفرة والرضوان من رب العالمين؛
راضيا قانعا بما كُتِبَ في سفر الحياة والموت، آملا بحياة الخلود ودار البقاء له ولحيبته الغالية المعفّر
قبرُها بنكهة السماء..

الإحالات:

- (1)- عبد الله حمّادي: ديوان "أنطق عن الهوى". دار الألفية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط1، 2011 م.
- (2)-

(12)- من الأسباب التي كانت وراء تغييب قصة البوغي لزمان طويل، نجد العامل الاجتماعي والعادات والعرف زيادة على كونها تخدم بشكل ما شرف الطبقة البورجوازية القسنطينية آنذاك.

(13)- والبيت من قصيدة طويلة لأبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه مطلعها:

أَمِنَ الْمُنُونِ وَرِبَّهَا تَتَوَجَّعُ وَالْدَهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِحُسْمِكَ شَاحِبًا مِنْذُ ابْتَدَلْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ

ومن أجمل أبيات القصيدة - والقصيدة كلها جميلة- قوله :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وَمِنْ أَبْيَاتِ الْقَصِيدَةِ أَيْضًا قَوْلُهُ :

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَتَى لِرُبِّ الدَّهْرِ لَا أَنْتَضِعُ
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا فَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

(14)- ديوان "أنطق عن الهوى" ص: 99.

(15)- المصدر نفسه. ص: 99.

(16)- المصدر نفسه. ص: 100.

(17)- الديوان. ص: 101.

(18)- المصدر نفسه. ص: 102.

(19)- الديوان. ص: 103.

(20)- الديوان. ص: 103.